19991224-0001

«شعب متحضر» كوميديا قاسية ملطخة بالدم تدور أحداثها في بيروت

الرقابة اللبنانية تمحو آثار الحرب بالمقص!

بُعيد تكريم رندة شهال صباغ بجائزة من الأونسكو في مهرجان البندقية السينمائي في الخريف الماضي، قامت (المخرجة) المكرّمة بإرسال فيلمها (كوميديا قاسية ملطخة بالدم تدور أحداثها في بيروت أيام الحرب) كي يدقق فيه رقيب الحكومة اللبنانية.

وظنت المخرجة اللبنانية شهال صباغ؛ التي تعيش في باريس، أن أبناء بلدها مستعدون ربما لنظرة صريحة الى حربهم الأهلية ١٩٧٥ – ١٩٩٠.

مدة الفيلم، الذي يحمل عنوان «شعب متحضر»، ساعة وواحد وأربعون دقيقة. وجاء حكم الرقيب قاسياً: حذف نصف الفيلم، أو ما يعادل ٥٠ دقيقة من مدة الفيلم. وقد خاب رجاء شهال صباغ، بيد أنها لم تفاجأ تماماً؛ اذ لم يسبق أن عرض في لبنان أي من أفلامها السابقة المتعلقة بالحرب.

وقد قالت في إحدى المقابلات: «الجميع قالوا لي لماذا تريدين التحدث عن الحرب؟... هناك جهد وطني هائل لمحو ونسيان آثار الحرب كافة».

بدأت حرب لبنان قبل ٢٥ عاماً تقريباً، وفي العام المقبل تحل الذكرى العاشرة لنهايتها. لكن رغم أن الحرب خلفت ١٠٠ ألف قتيل على الأقل، ومدناً مدمرة وحالات نفسية مرضية طاولت عدداً كبيراً من السكان، فليس في لبنان أي خطة للاحتفال بهذه التواريخ.

ان الآثار المادية للحرب موجودة في كل مكان؛ في الواجهات المنخورة لعدد لا يحصى من المباني وفي المقابر التي تتخلل البلد. ومع ذلك، يرى كثير من المحللين أن ذاكرة ضائعة مسوغة رسمياً طمست ذكريات الحرب وثنت اللبنانيين عن استخلاص دروس منها.

على الرغم من أن لبنان واحد من أكثر المجتمعات العربية انفتاحاً، فإن الكلام على الحرب يعتبر تجاوزاً لحدود الحديث المهذب. وفي معظم مناهج التاريخ الدراسية في الجامعات، لا يؤتى الى ذكر الحرب، ولا يعاد النظر في أسبابها، ولا تلحظ نتائجها. وقد جرى في الخريف الماضي إلغاء برنامج تلفازي في آخر لحظة، وبأوامر من جهات عليا، لأنه كان يرمي الى مناقشة ارث الحرب.

وحتى اللغة نفسها طُوعت لتتلافى حساباً مباشراً مع الماضي. وإذا ذكر اللبنانيون الحرب الأهلية بطريقة ما، فإن كثيرين منهم يشيرون اليها بعبارة «الأحداث» أو بعبارة «حرب الآخرين» استغراقاً في فكرة أن الغرباء هم الملومون بصورة أساسية.

يقول مراقبون ان الخطر في عدم مبالاة لبنان تجاه تاريخه الحديث هو أنه ربما يزيد في حدة خطر تكرار الماضي؛ فالضغائن الطائفية بين جماعات متنازعة من اللبنانيين المسلمين والمسيحيين، وهي التي أطلقت شرارة الحرب وأججتها، هي الآن كبيرة مثلما كانت قبل اندلاع الحرب سنة ١٩٧٥، كما يرى كثير من المحللين. وقد ثبطت هذه التوترات عشرات الآلاف من اللبنانيين الذين فروا من الحرب ويعيشون في الخارج وأقنعتهم بالعدول عن العودة الى وطنهم، حتى مع سعي الاقتصاد اللبناني الحثيث للوقوف على قدميه.

رنده الشهال في اثناء التصوير

وقد قال أستاذ العلوم السياسية في الجامعة الأميركية في بيروت فريد الخازن «ان هذا الجرح لم يبرأ بعد... والفكرة هي أن علينا نسيان الحرب وطي الصفحة ومواصلة السير. انها لفضيحة».

في بيروت، حيث تنفق مئات الملايين من الدولارات لإزالة وإعادة بناء وسط المدينة الذي مزقته القذائف، لا يوجد تقريباً شيء مرئي يذكر بالحرب.

في العام الماضي، عندما قادت مجموعة من المفكرين اليساريين مسيرة الى مخيمي اللاجئين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا، حيث قتل أكثر من ألف شخص على أيدي ميليشيا الكتائب المسيحية سنة ١٩٨٢، صعق هؤلاء المفكرون حين وجدوا أن المقبرة تحولت مكباً للنفايات. وكان لا بد من استدعاء جرافات لإزالة الأوساخ.

ثمة عفو شامل جرى تقنينه بعد انتهاء العنف بوقت قصير يحول دون محاكمة أعضاء الميليشيات وسياسيين كبار على السواء، ويمثل كرادع لمناقشة الحرب مناقشة استقصائية علنية.

وقد حاول أقرباء ١٧ ألف شخص فقدوا في الحرب احياء الاهتمام بتقصي مصائر أحبائهم، لكنهم ووجهوا ببناء سلطة وطنية تشمل أمراء حرب سابقين، وقوبل ممثلو الأقرباء بعدم اكتراث رسمي. ووصفت حسانة جمال، من الناشطين في سبيل تحقيق في مصير المفقودين، احباطها بالقول: «كنا نتحدث الى أحد النواب، فقال (من يتذكر من قتل من؟)».

وقال الكاتب والصحفي اللبناني الياس خوري: «المسؤولية، الجرائم، المفقودون – لم يجر التعامل مع أي منها... والأشد مأسوية بشأن الحرب الأهلية اللبنانية هو انها ليست مأساة في وعي اللبنانيين».

في أوساط المفكرين محاولات للأخذ بناصية الحرب. وقد تطرق روائيون وفنانون ومخرجون سينمائيون الى الحرب، ووضعت رسائل بحثية بشأنها. وفي الجامعة اللبنانية الأميركية في بيروت، طرحت لأول مرة حلقة دراسية خاصة بالحرب وجعلت موضوعاً للتخرج. وقد التحق بالحلقة نحو ٣٠ طالباً. وهؤلاء الطلاب لبنانيون في العشرين من أعمارهم، وهم من جيل جديد «يريد أن يعرف كيف أفسد أهلوه الأمر»، كما قال أستاذ العلوم السياسية في الجامعة اللبنانية الأميركية فواز طرابلسي، الذي يدرس في الحلقة الخاصة بالحرب. وقد أضاف طرابلسي قوله: «اذا كان يتعذر استرداد الضحايا، ينبغي على الأقل أن يترك للجيل التالي بعض الدروس بشأن الحرب بحيث لا تتكرر».

متابعة: حسن حسن

الكفاح العربي ٩٩/١٢/٢٤